

## الرجل الجبل

2008/06/23

إيمان يحيي

هو بتكوينه الجسدي أشبه بالجبل، صدر عريض، قامة طويلة، وقسمات وجه جادة، لفرط صرامتها تحسبها تجهما، يمتلك نفسا عصية علي التطويع، استقامة فكرية وخلقية ليس لها نظير، يخوض المعركة تلو الأخرى، ولا يخرج من معاركه إلا منتصرا، كم من معارك خاضها، ولم يكن هناك أدنى بصيص من أمل في كسبها، لكنه كان يكسبها بنفسه الطويل وبارادة حديدية وتصميم لا يلين، لذا استحق عن جدارة أن يطلق عليه أصدقاؤه وتلاميذه ومحبيه «الرجل الجبل».

في سيرتو الذاتية «مشيناها خطي»، كشف اللثام الدكتور رءوف عباس عن الفساد الجامعي وتدخل الأمن في الجامعة، بلغت صراحته وجرأته في الحق مبلغا، لم نره من قبل في كتابات السير الذاتية. أشار إلي المفسدين بكامل أسمائهم وذكر الوقائع كاملة، غير أنه بالعواقب القانونية لم تكن «سيرة ذاتية» بل هي شهادة تاريخية من مؤرخ مرموق علي الواقع السياسي والاجتماعي في مصر المعاصرة انتقلت المعركة إلي ساحات المحاكم، وكما عودنا فقد انتصر فيها انتصارا مبرما.

كادت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وهي الجمعية العلمية العريقة، أن يلقي بها إلي الشارع بعد تطبيق قانون زيادة إيجارات الأماكن السكنية، لجأ الرجل إلي الحكومة فلم تنجده، خاصة معركة لا هوادة فيها، تقاعس المجتمع المدني عن تقديم يد المساعدة واستغل بعض «الأشقاء» الفرصة كي يقدموا مساعدة مشروطة، تستهدف النيل من موضوعية المدرسة التاريخية المصرية، كان موقف رءوف عباس كعادته ذودا عن كرامة المصريين وعن تاريخهم الوطني، وفي النهاية انتصر في معركته، وأصبح للجمعية التاريخية مقر مملوك لها من أربعة أدوار يحتضن مكتبتها النفيسة وقاعات محاضراتها.

أسس مدرسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي المصرية كان أساتذته الدكتور أحمد عزت عبد الكريم قد بدأ مسيرتها، فجاء رءوف عباس ليحفر لها مجري عميقا في ثقافتنا المصرية بفضله وبفضل زملائه أصبح لدينا مدرسة ورؤية أصيلة ومبتكرة في أن واحد لتاريخ مصر العثماني، مازال سيمينار التاريخ العثماني القائم تحت إشرافه للسنة السابعة عشرة يوالي إنتاجه وإبداعاته اهتم بصناعة الفكر الثقيلة، فتبني مشروعات عديدة لإعادة قراءة تاريخ هذا الوطن.

يغلب علي مؤرخينا «كتابة التاريخ» عبر حروف العطف، وجاء رءوف عباس وزملاؤه ليضعوا المنهج والتحليل الاجتماعي والاقتصادي في صلب «كتابة التاريخ» له نظراته الفاحصة وأبحاثه الرائدة في «تاريخ الحركة العمالية المصرية» و«أوضاع الملكية الزراعية في مصر» و«اليهود والحركة الشيوعية المصرية» وغيرها عمل علي ترجمة أهم مصادر الفكر الاجتماعي والمصادر التاريخية إلي العربية غاص في أرشيفات الوثائق البريطانية والأمريكية لينير لنا ما خفي من أحوال تاريخنا السياسي المعاصر.

كل حياته معارك، معركة ضد «التطبيع» هنا، ومعركة ضد الفساد والمسحوبية «الجامعية» هناك، ومعركة من أجل رفع راية الجامعة المصرية في اليابان أو أمريكا.. إنه بحق رجل المعارك الذي لا يلين.

في معركته الأخيرة ضد المرض اللعين، ورغم الآلام المبرحة، أصر أن يمكس بقلمه حتي في أصعب الأوقات حرر كتاب «الجامعة والمجتمع» لجماعة 9 مارس المدافعة عن استقلال الجامعات المصرية، ولم يبخل علي تلاميذه بتقديم أعمالهم عندما عرضوا عليه العلاج في الخارج علي حساب شخصية عربية كريمة، ورغم الإلحاح المطرد من تلامذته وأصدقائه، كان رده حاسما «لن أعالج علي حساب أحد من الداخل أو الخارج».. وتلقي رءوف عباس علاجه في أحد المستشفيات الجامعية المصرية علي حساب الجامعة، كأى عضو هيئة تدريس بالجامعات المصرية، ألم أقل لكم إنه «الرجل الجبل» رفض أن يهين كرامته ليستجدي من «نظام» ناصب شعبه العدا أو من «شقيق» عربي.

جاءني صوته ضعيفا خائرا من فرط الإعياء والألم عبر الهاتف، مازحا «يا جبل ما يهزك ريح».. ها هو الجبل يهتز يا صديقي قد تخون الإنسان ضربات قلبه أو دقات الدم في وريده، لكن رءوف عباس بالنسبة لأصدقائه وتلاميذه ومريديه، هو «الجبل» بكل شموخه وكبريائه مئات من تلامذته ومريديه يستمدون القوة والصمود منه، ولا أبالغ إذ أقول إن كثيرين منا يعتمدون في توازنهم النفسي علي وجود «رءوف عباس» وأمثاله من «الجبال» في دنينا

[http://www.elbadeel.net/index.php?option=com\\_content&task=view&id=23252&Itemid=39](http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=23252&Itemid=39)